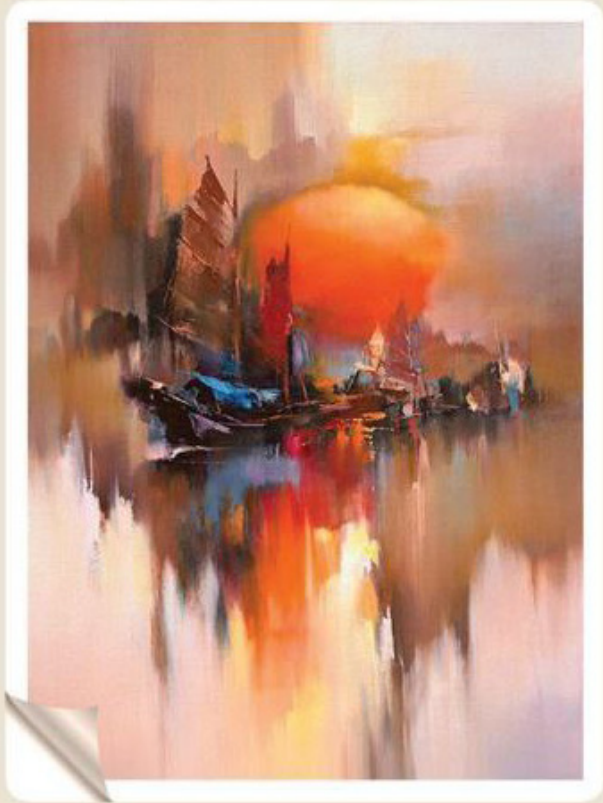


إبراهيم مضواح الأملعي

سُورَةُ حُبِّ



وقصص أخرى

إبراهيم مضواح الألمعي

سورة حُب

وقصص أخرى

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

سورة جـب

وقصص أخرى

الطبعة الأولى

2023م

جميع حقوق الطبع محفوظة

القصة

- 11 - الجرادة
- 15 - لحظة فاصلة
- 19 - معارك صغيرة
- 27 - المصروف
- 31 - الراحل
- 35 - الرصيد
- 41 - في المقهى
- 45 - حديث الفستان المكي
- 49 - سَوْرَةٌ حَب
- 59 - الطريق إلى أسفل
- 65 - الكابوس
- 75 - الحب من النعمة الأولى
- 81 - امرأة مختلفة

الجرادة

الجرادة

اقتحمني صوت غريب، يُنادي: «ياا ولد!»؛ شعرتُ أني
المعني، برغم كثرة الأولاد حولي، التفتُ فإذا صاحب
النداء الخشن جالسٌ في سيارته الواقفة خلفي، كرَّرَ نداءه
وهو ينظر إليَّ، فتأكد لي أنه يعنيني، أشرتُ بأصبعي
إلى صدري، متسائلًا! قال: نعم أنت، وهو يمدُّ يده من
نافذة السيارة قائلاً: تعال.. تعال.. بلهجةٍ مريية، وقفتُ
واجمًا، وزملائي الذين حضروا مثلي مبكرًا قبل فتح باب
المدرسة، يقبلون وجوههم بيني وبينه، اقتربتُ بتردد، فمدَّ
يده مصافحًا: لا تخفُ أنا والد زميلك (حامد)، تملكني
مزيدٌ من القلق، (حامد.. الجرادة)؟! هكذا نسّميه منذ
انضم إلينا في الصف الرابع، فهيتته وتصرفاته جعلته مادة
لسخرية التلاميذ وتندرهم؛ وأنا أولهم، لم أجد مناصًا من
وضع يدي الصغيرة في يده الضخمة الخشنة، فأطبق عليها
يديه كحجري رَحَى، وهو يحدِّق بعينه الواسعتين في

وجهي، أفزعني حاجباه الغزيران وشاربه الكث، أذعنتُ
كفأرٍ أطبقتُ على رقبتة مصيدة، السواد حول أسنانه بدا
مقززاً وهو يقول: لماذا تعتدي على (حامد) وتسخر من
ثيابه وكلامه؟ أردتُ أن أقول: كل التلاميذ يفعلون ذلك،
ولكن الكلمات وقفت في حنجرتي، قال وقد لمح الدموع
تتجمهر في عيني: ماذا تريد أن أفعل بك الآن؟ هممتُ أن
أقول: أريد أن تطلق يدي. ولكن دموعي سبقت كلماتي،
وشعرتُ أنها كافية لتقول له ذلك، لم يكثرث، وجه لي
سؤالاً آخر مفاجئاً: من هو الجراد؟ قلتُ وأنا أمسح
دموعي ورذاذ لعبه عن وجهي: لا أحد.. بدا الاشمئزاز
على وجهه وهو يدفعني بعيداً عن سيارته، كدتُ أشعر
بلذة الخلاص من قبضته، لولا أن الذعر يملكني، وأنظار
الطلاب تتجه إلي بنظولي المبلل، والجرادة يبدو كأسد
يرمقني من مقعده بجوار أبيه.

نوفمبر 2017م

لحظة فاصلة

لحظة فاصلة

تغيّم الأشياء من حولي، تفقد ملامحها، تبدو الغرفة واسعةً
لا نهاية لها، طنينٌ يملأ رأسي، جمجمتي فارغة، ومزدحمة،
تشخص عيناى في السقف، الذي يبدو بعيداً، ثم يدنو كلما
حدقتُ فيه، حتى يلامس صدري، تضيق أنفاسي، تتباطأ
نبضاتي، تلوح لي وجوه لم أرها من قبل، تطلُّ عليّ أخطائي،
خطاياى تمدُّ ألسنتها بتشفٍ مقيت، تتضخم لحظات الندم،
أبدو لنفسي شيئاً تافهًا، أتذكرُ مواقفَ لؤمي، ترتسم على
الجدران وجوه أناس أذيتهم، وآخرين خذلتهم.

يضغط السقف على صدري، أتألم، ويخذلني صوتي
حين أصرخ، يتلاشى السقف، أنفذ إلى الفضاء، أشعر
بخفة، لا شيء يُكبِّلني، أعلو، وأعلو، السماء مرصعةٌ
بوجوه أتذكرها جيداً؛ أمي هنا تمدُّ إليّ يديها، أنظر إليها
بعيني غريق، ثمّ التفتُّ إلى وجوه صغاري هناك يجللهم
اليثم؛ أهوي.. أهوي.. أهوي..

ديسمبر 2017م

معارفك صغيرة

معارك صغيرة

حين دخلتُ بيتنا امرأةٌ أخرى تأكدتُ أن أمي لن تعودَ أبدًا،
أرقبُ المساءَ وقلبي يرتجفُ كلما تذكرتُ ساعاته الثقيلة،
والوحشهُ تَسَرَّبُ إلى غرفتي من النوافذ، من تحت الباب،
من وراء الخزانة، كلما اقتربتُ الشمسُ من المغيب شعرتُ
بأن السماءَ تغيمُ بالوحشة، وددتُ لو أني أستطيعُ أن أقفَ على
الجبل الضخم فأدفع الشمسَ بيديَّ حتى لا تهوي وراءه.

أنغمسُ في توجسي وصمتي سحابةً يومي، حتى أضعَ
رأسي على وسادتي الرمادية، وأحتضن جزءًا منها بحنانٍ
افتقدته منذ فقدتُ حضن أمِّي.

أمسى الخوفُ من قدوم الليل أشدَّ وطأةً على قلبي الصغير
من الليل نفسه، ثم ألفتُ الوحدةَ والوحشة، صرتُ أعرفُ
أنها ستنتهي إلى لا شيء، ولكنها تُجهدُ قلبي الصغير قبل أن
أستسلم للنوم.

في الصباح أستيقظ على صوت أبي؛ يناديني بنفس
الكلمات التي أسمعها كل يوم: «قُمْ الوقت متأخر.. سيفوتك
باص المدرسة... أسرع.. أسرع» أتلفتُ حولي فلا أجد أمي،
وأجدُ كوبَ الحليب والجبن والبيض المسلوق؛ كرهتُ هذه
الوجبة الصباحية، التي أُعدتْ لي وحدي، ككل الأشياء التي
أفعلها بمفردي.

عندما تقسو عليّ زوجة أبي أكتُمُ غيظي، فتشعر أنني مُتبدّل
الحِسّ، فيزداد غيظها؛ وحين يأتي المساء يحين وقت الانتقام؛
فألقي بها في الوادي، أمام السيل، يغمرها حينًا، وتطفو أحيانًا،
تستنجد بي، ولا أنقذها.

يَعْجَبُ زملائي حين لا أشاركهم الشكوى من قسوة مدرس
الرياضيات، وقد ضَرَبْنَا دون استثناء، فيُهيلون عليه اللعنات
والشتائم بعد خروجه من الصف، أما أنا فلا أشاركهم، فلم
يحن وقت الانتقام بعد؛ في المساء تركته يضربُ زملائي
جميعًا، فلما وصلني الدور رفع يده ليضربني فتخشبتُ ولم

يستطع إنزالها، وأخذ يرتجف وتهتز يده كمن صعفته كهرباء،
كان ينظرُ إليَّ برجاء فلم أبه لنظراته.

في المرحلة الثانوية استبعدني مدرس الرياضة من فريق
المدرسة، فرحْتُ لهزيمة الفريق، اعتبرتها هزيمة لمدرس
الرياضة وحده، وانتصارًا لي؛ في المساء استنجد بي مدرس
الرياضة، استطعتُ بمجهودٍ فردي وبمهارة فائقة أن أقلبَ
النتيجة، عشتُ حماسَ المباراة، تهتُّرُ قدمي تحت البطانية،
وأنا أجوب الملعب، وأسجّل الأهداف، ونمتُ منتصرًا.

في المساء متسعٌ لسماع تعليقات أمي على تصرفاتي،
ومعرفة رأيها في الأمور التي أنوي فعلها، أخبرتها عن شعور
أبي تجاهي، وأنه لم يعد يهتم لوجودي، وربما لم يعد
يشعر به، أما زوجة أبي فهي لا تحبني، وربما لم تستطع أن
تكرهني، فوجودي لا يختلف عن وجود القط الذي تربيته،
أنزوي بصمتٍ في غرفتي كأن لم أكن، وحين تطلبُ مني شيئًا
أنجزه على الفور لأحمي نفسي من اللوم الذي تتقنه، يزعجها

أنها تراني دليلاً على عجزها عن الإنجاب.

منذ رحلتُ أُمي تشابهتُ الأوقات، وتنوعتُ مخاوفي،
وخضتُ جميعَ معاركي بمفردي، وحسمتها جميعاً
لصالحِي، كنتُ البطلَ الذي يحقق ما يريد، يحدد مكان
المعركة وأسلوبها، وطريقة كسر الخصم، كلُّ ذلك دون
أن يشعر أحدٌ سواي؛ في المساء متسعٌ لكل ذلك، أما النهار
فهو للصمت وللتأمل الغامض؛ لم تكن أقسى معاركِي التي
خضتها في أماسي الانتظار معركتي مع زوجة أبي، ولا مع
أندادي في المدرسة بل المعركة التي أخوضها مع المستقبل،
حينَ يعرفُ الجميع أن حصوني التي تبدو لهم من الحجر
الصَّوان، ما هي إلا جدرانٌ من الورق، سرعان ما تتهاوى أمام
أدني عاصفة.

ها أنا أرسُمُ صورتي التي طالما أخفيتُها عن الناس، وحذارِ
أن تظني ذلك صحوةً ضمير، أو شجاعة، كلا، كلما في
الأمر أنني اخترتُ أن تعرفي الآن عَوْصاً عن أن تعرفيها غداً

فتصبحين خصمًا في معركة أضطرُّ إلى خوضها على الملاء،
فكيف ترتبط فتاة تتطلَّع للحياة وللمستقبل برجل أخوف ما
يخاف الحياة والمستقبل؟! لن أشارك في إنجاب طفل لا
أضمن له بقاء أمِّه، ولا أستطيع حمايته من زوجة أبٍ تزدريه،
أو من زميلٍ يتنمَّر عليه، أو من معلمٍ يُقصيه، ولا أستطيع أن
أزود عنه مخاوف الليل، أو أحميه من الحمَّى، أو من سيارة
تحطُّ عظامه، وقد يصبحُ العوبةً يتاجر به الكبار، أو يكون
أداةً يُحاربُ بها القتلة؛ أو أموت فيعيش البؤس الذي عشته،
وربما تولاه زوجٌ أمٌّ فأذاقه ما ذقتُ من زوجة أبي، قد أنجح في
خداعك لبعض الوقت، ثم أنكشِفُ بعد فوات الأوان فيكون
سقوطي مدويًا..

طوى الرسالة وقد عزم أن يكون تسليمه وداعًا، وأن يكون
اعترافه اعتذارًا للفتاة التي توهَّمت فيه زوج المستقبل، ووطنٌ
لبعض الوقت أنه يستطيع الارتباط بها، فشاركه طيفها أماسي
كثيرة، وقال في تلك الأماسي ما لم يجرؤ على قوله لها.

وضع بين يديها رسالته التي كتبها بحبر لم يستخدمه من قبل، وهو يعتقد أنها لن ترهن حياتها لمُشَرِّدٍ يعيش في العراء ويلتجأ الأوهام، ولكنه فوجئ بأنها تتعلق به أكثر، وتنشر حياتها على جبل أوهامه، وتعدُّه أن تستنزه إلى بسايتها المزهرة، وأن يوم زواجهما سيكون يوم عودة الأم الغائبة.

حَيْرُهُ تعلقها به وقد تعرى من كل البطولات، أشفق عليها، وأوشك أن يوافقها، ولكنه تراجع فهو لا يدري كيف ستجري الأحداث في المساء حين يضع رأسه على وسادته الرمادية، ويخوض معركته الأخيرة مع الفتاة التي تحاول اقتحام حصونه الواهية.

ديسمبر 2017م

المصروف

المصروف

هنا.. حيثُ يجتمع أبناء القرية، في انتظار الحافلة التي تأخذهم إلى المدينة في هذا الموعد من كل أسبوع، جلس الشاب على طرف مقعد خشبي قديم، فيما أخذ الأبُ يتفحصُ الوجوه، ويصطنعُ الحديث مع المنتظرين الذين يدرسون أو يعملون في المدينة، تحدّث مع أكثرهم، وفجأةً أخرج مسدّساً من تحت قميصه؛ توجّس بعضهم، وتبسّم آخرون؛ استجمع ما بقي لديه من مهارة عسكري قديم؛ صوّبه في مشهد تمثيلي نحو علبة صغيرة غير بعيدة، أصابها بثقة، ثم استدار إليهم: «من يجرب؟» قفز إليه بعضهم، وتردد آخرون.

«ليس لديّ إلا أربع رصاصات، من يخطئ العلبة يدفع عشرة ريالات قيمة الرصاصة».

وافق بعضهم، وتراجع آخرون، وانتهت المحاولات الأربع بأربعين ريالاً في يده. مسح المسدس ولفّه في منديله، وأعادته تحت قميصه، ثم دسّ الأربعين في جيب ابنه وانصرف.

أبريل 2018م

الراجل

الراحل

فَرَّقَهُم السَّعْيُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ هَا هُمْ يَلْتَقُونَ؛ تَغْشَاهُمْ
الْبَهْجَةُ، يَتَفَنُّونَ فِي رَوَايَةِ النُّكَاتِ، وَالتَّعْلِيقَاتِ، يَشْعُرُ كُلُّ
مِنْهُمْ بِالنَّقْصِ الَّذِي اعْتَرَاهُمْ مِنْذُ رِحْلِ رَفِيقِ لِقَاءَاتِهِمْ بِلَا
وَدَاعٍ، يَتَعَمَدُونَ عَدَمَ ذِكْرِهِ أَوْ مَا يُؤَدِّي إِلَى ذِكْرِهِ، وَكَأَنَّهُ
لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى يُتَمِّمُ جَمْعَهُمْ، مَضَتْ لَيْلَتُهُمْ وَهُمْ
يَتَحَدَّثُونَ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَذْكُرُ اسْمَ رَفِيقِهِمْ
الرَّاحِلِ، وَكَأَنَّمَا هُمْ فِي سَلَامٍ مَعَ الْقَدْرِ، وَلَمْ يَرْحَلْ رَفِيقُ
دُرُوبِهِمْ مِنْذُ أَشْهُرٍ، بَيْنَمَا كَانَ يَمَلَأُ تَفْكِيرَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ،
بِقَفْشَاتِهِ، وَتَعْلِيقَاتِهِ، وَنُكَاتِهِ، وَصَمْتِهِ حِينَ يَسْتَعْرِقُ فِي
فِكْرَةٍ، وَحِكَايَاتِهِ الَّتِي يَرُويهَا بِتَفْصِيلٍ يَجْعَلُهُمْ يَعِيشُونَهَا
قَبْلَ أَنْ يَصْدَمَهُمْ بِمَا يَدْهَشُهُمْ فِي نِهَايَةِ الْحِكَايَةِ؛ فَيَضْحَكُ
وَيَضْحَكُونَ، كُلُّهُمْ يَتَذَكَّرُ ضَحْكَتَهُ الَّتِي يَنْتَزِعُهَا مِنْ أَعْمَاقِهِ
مَعَ كُلِّ طُرْفَةٍ تَرُوي، تَسَلَّلَ الرَّاحِلُ إِلَى ذَاكِرَةِ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ، وَنَبَّشَ فِي دَاخِلِهِ بِمَعزِلٍ عَنِ رِفَاقِهِ..

مايو 2018 م

الرصيد

الرَّصِيدُ

كلما اقتربتُ من برج الأحلام ازدادت دهشتي وإعجابي
بجمال تصميمه، وفخامته، وروعة الأشجار التي تُطلُّ من
فوق أسواره، وقفتُ مأخوذةً بواجهته الزجاجية، اتجهتُ
نحو بابهِ الزجاجي الذي يفصل البهو البارد، عن وهجِ
الظهيرة الحارقة، دخلتُ مستجمعاً الدهشة التي أوْشكُ
القيظُ أن يبددها، دارَ بي البابُ الأوتوماتيكي نصف دورة،
وجدتني أمامَ شابٍ أنيق، انحنى مُبتسماً وهو يرحب بي
ثم تقدّمني إلى باب المصعد الذي لم يمهلني سوى ثوانٍ؛
ملأتُ خلالها صدري بهواءٍ معطرٍ بارد، وألقيتُ نظرةً
على البهو الواسع، وشجيرات الزينة، والثريات المذهّبة،
عَرَجَ بنا إلى طابق لم أعرف رقمه، فليس ثمة أرقام، انفرج
البابُ على رَدْهَةٍ واسعة، تبعثُ دليلي نحو حجرةٍ مفتوحة
في نهاية الرَدْهَةِ، أشار إليّ بالدخول؛ استقبلتني سيدهٌ مهذّبٌ
باسمة، أشارت إليّ مقعدٍ وحيدٍ في الحجرة، ثم غابت

قليلاً، فيما تسرّبت إلى سمعي موسيقى دافئة، تهطل مع
النسيم البارد من السقف، عادت تدفع عربةً أنيقة، عليها
فنجان قهوة وعلبة حلوى؛ وقبل أن أفرغ من فنجان
القهوة، قالت: «ستقف أمام هذا الجهاز ليُحدّد رصيدك
من السعادة»، أو مأتُ برأسي وتقدّمتُ نحو الجهاز،
وقفتُ بقدميّ الحافيتين على صفيح بارد، قبضتُ بيديّ
على مقبضين ناعمين، حدّقتُ حيث أشار الرجل المتأنق
الواقف خلف الجهاز؛ والثواني تتساقط على شاشة زرقاء؛
ظهرت النتيجة، لم أعرف رصيدي من السعادة، ولكنني
عرفتُ المبلغ الذي سيُودع في حسابي، مبلغٌ فوق ما أحلمُ
به، «لا بُدَّ أن كمية السعادة التي سيسلبها مني الجهاز
كبيرةٌ جدًّا؛ ترى بكم سيبيعونها؟ ولمن ستباع؟» قطع
تساؤلاتي حين قال: «أمامك على الشاشة...» لامستُ
إصبعي إشارة (موافق) قبل أن يُتمَّ كلامه، في اللحظة ذاتها
وردتني رسالةٌ على هاتفي الجوال، تفيد بإيداع المبلغ

في حسابي، لم أشعر بأي بهجة ولا دهشة لذلك، وكان الأمر لا يعنيني. قبل أن أُعيد الهاتف إلى جيبي أمسكتُ يدٌ غليظةً بذراعي؛ انقذتُ له بهدوء، صحبته عبرَ ممرٍ ضيق، أجرُّ أقدامي في ثقاقل، استثقلتُ الوقتَ في انتظار المصعد، هبطنا ببطء، شعرتُ باختناق قبل أن ينفرج باب المصعد نحو دهليز طويل، انتهى بنا إلى باب صغير، فتحه صاحبي دون أن يتكلم، وضعتُ قدمي على الرصيف.. لفح وجهي الهجير وأُغلق البابُ ورائي، لقد أصبحتُ خارجَ أسوارِ البرج؛ حرارة الجو لا تُطاق، والوهنُ يملأُ جسدي، أجرُّ أقدامي على رصيف فارغ، وأحتمي بظل سورٍ كئيبٍ تخليتُ داخله عن كلِّ أفراحي والمؤملِ من لحظاتي السعيدة.

يونيو 2018م

في المقهى

في المقهى

يتنفس المُعَسَّل إلى أعماق رئتيه، ثم يفرج عن الدخان قليلاً قليلاً، يتحدث عن فوارق الأسعار بين متاجر المدينة، وعن قدرته على مفاصلة الباعة حتى يحصل على أقل الأسعار، وكيف ينجو من محاولات الغش التي تنطلي على البلهاء، ولكن المرارة تكسو ملامحه حينما ذكر مستلزمات أبنائه الدراسية، ومصروفهم اليومي، وعدم تقديرهم للريال، اغتظت من صاحبي الذي دعاه للجلوس بجوارنا، واستزاده من الحكايات، والشكوى. أحاول تفادي النظر إلى عينيه الحمرأوين، ولحيته الشعثاء، وأسنانه الصفراء، وثوبه المهترئ.

تعجّلت الانصراف من المقهى، وعند المحاسب تقدّم صاحبي ليدفع الحساب، فهو يعلم أن جيبي يصبح خاوياً في النصف الأخير من كل شهر، اقترحت عليه أن يدفع عن صاحبنا أيضاً، فتجاهل الأمر، ندمت على اقتراحي،

في الطريق إلى موقف سيارتنا أخبرني أن صاحبنا لن يدفع
ثمن المعسل ولا كوب الشاي، فالمجمّع التجاري الذي
يضم المقهى بعض أملاكه.

يوليو 2018م

حديثُ الفِستاقِ المكيِّ

حديثُ الفستانِ المكي

سيدتي التي كانت ذات يومٍ صغيرةً مثلي، مضت عليّ سنواتٌ في قاع البحر غيرت ملامحي، كما غيرت ملامحك، كبرت أنتِ، بكيتِ وضحكتِ، ابتهجتِ وتألّمتِ، في حين بقيتُ جامدًا تلاشتُ من حولي الأشياء، ولم يبقَ مني سوى خيوطٍ ذابلة، لا لون لها، وصورةٌ أبٍ وقعت عيناه عليّ ذات صباح، على باب متجرٍ مكي عتيق، اقترب مني، تناولني، قربني من صدره، تخيلني مسكونًا بكِ، قدّر أني سأبدو أكثرَ جمالًا عندما تتراقصين بي، ابتسم، اشتاق أن يضمّك، دفع ما طلبَ البائعُ دونَ فِصال، ضمّني إلى صدره، أودعني ما لا يوصف من الأشواق، وضعني بعناية في شنطة سفره، وافترقنا، غمرني الماء، وغاب هو، ومضتِ السنون، وكبرتِ أنتِ، وعادتُ إلى بقايا حياة، أبقاها نبضُ أشواقه تلك، فمن أنتِ؟ وأين أنتِ؟ وكيف أوصلها إليك؛ يا سيدتي التي كانت ذات يومٍ صغيرةً مثلي؟

أغسطس 2018م

سورة جب

سورة حب

وماذا يعني أن أكون في السبعين وهي في الستين؟! سيتحدث الناس عن هذا الشيخ المتصابي، لا يهم؛ فليقولوا ما يقولون؛ إنني أستعيد عمري الضائع، وحيي المسلوب، وأثار من الحرمان، أعلم أنه لم يبق مني سوى الكلام؛ ألا كيفيها هذا؟! سأحكي لها ما لم يسعنا الوقت لنقوله في آخر لقاء. سأحكي لها الحكايات التي أراجأتها؛ لدي رصيد من الحكايات التي كتبتها في صدري، وطالما استعدت بعضها من على طرف لساني لأنها لا تليق إلا بأذنيها. ستسمعني بشغف؛ كما كانت في تلك الليالي التي قضيناها إلى جوار البيت القديم؛ عندما ينتصف الليل، ويهب السكون على جنبات القرية تتسلل من نافذة غرفتها فتجدي بانتظارها، ويمضي الليل وأنا أضفرُّ لها الحكايات، وأستمع لأقاصيصها. ربما سمعنا حركة فصمتنا، وحين تخاف فجأة تقرب مني؛ فأشعرُ بدفئها، ثم تنتبه فتراجع قليلاً. في الليلة

الأخيرة تعاهدنا على الوفاء والانتظار؛ عاهدتها أن أسعى
للووظيفة من الغد، وأن أجمع مهرها في سنة واحدة وأعود
فأتزوجها وأرتحل بها إلى العاصمة، وعاهدتني ألا تتزوج
ابن عمها الذي ارتحل إلى المدينة للسبب نفسه.

سأحكي لها أني غادرتُ البلدة في صبيحة اليوم التالي،
إلى مدينة صغيرة فيها تتوفر سيارات تنقل المسافرين
إلى العاصمة، لم تكن سيارة؛ كانت شاحنة مكشوفة.
في الليل كنا نوغلُ في الصحراء؛ يلفُّنا الظلام إلا من أنوار
الشاحنة التي تنهب الطريق في فضاء دامس لا تبدو له
نهاية. توسدتُ حقيبتني، وتمددت على ظهري، وقد لفتُ
رباطها على يدي، مخافة أن تمتد إليها أيدي المسافرين،
وبيدي الأخرى تشبثُ بأعمدة الشاحنة أقاوم اهتزازاتها
المتكررة. لم أجد أي حماس لتبادل الحديث مع رفقاء
الرحلة، أغمضتُ عينيَّ لعل النوم يتسرب إليَّ فينجيني
من وحشة الليل، والصحراء، والغربة، وفراق حبيبتني،

عاندني النوم أول الأمر، ولولا أن أحلامًا طافت بي لما صدقتُ أنني نمت، وحين فتحتُ عينيَّ رأيت القمر قد ارتفع؛ لم أجد فيه ما عهدته من أنس، فقد بدا قمرًا غريبًا عني، كان أشد توهجًا ولكنه لا يشبه القمر الذي كان يؤنسنا في ليالي القرية.

ترى هل راقبت القمر تلك الليلة؟ توهمتها تنظر إليه من نافذتها كما أنظر إليه أنا من فوق شاحنة تهيم في الصحراء، شعرتُ أنها تشاركني النظر إليه، شعرتُ بخدرٍ في صدري، وأنستُ بالقمر شيئًا فشيئًا، فهو رفيقُ ليالينا التي ملأناها بالحكايات، والأحلام؛ سيراني على غير ما عهدني؛ وحيدًا غريبًا في هذه الصحراء الموحشة، غمرتني سكينه بعد أن أطلتُ النظر إليه. تخيلتها تنظر إليه، وتشتاق إليّ، وتتذكر ليالينا التي تمضي سريعًا؛ وتتذوق قبليتي التي اختلستها على غفلة منها لحظة الوداع؛ سأخبرها أنني كنتُ أعلم أنها تظاهرت بالغفلة لأتذوق منها ما يشدني إليها في

غربتي، أرايتها زادًا لرحلتي التي قدرتها بعام، وامتدت
أربعين سنة.

سأحكي لها عن الندم الذي انسكب كالسديم فملاً نفسي
ضجرًا، فتمنيت أني أستطيع العودة، والنكوص عن رحلة التيه
هذه؛ ولكن ذلك أمرٌ مستحيل، فلا شاحنة النقل ستعود، ولا
أحد سيسمع رجائي، سأكون أضحوكة لهؤلاء المسافرين
الثقلاء؛ وما يدريني لعلّ فيهم من هو أشدُّ حزنًا مني. سأعني
لها الأغنية التي كررها الركاب حتى شعرتُ بالغيثان، لثقل
أصواتهم الرديئة؛ التي اختلطت بالعجز الذي كبّلني على
ظهر الشاحنة، والهزيمة التي أذعنتُ لها. لم أعرف تلك
الوحشة من قبل، اعترتني كآبة تمددت في أوصالي؛ أردتُ
أن أبكي، لم تطاوعني الدموع، ولا واتاني البكاء، أظلمتُ
نفسي كهذا الليل، وامتد الفراغ في صدري كهذه الصحراء،
وملاً الوهنُ روحي حتى لم أعد أشعر بشيء.

سأخبرها أنني لم أحقد عليها فقد بلغني مع خبر زواجها

ما تعرّضتُ له من الضرب، والحبس والتجويع، لم أعجب
لرُضوخها؛ فهل تصمد وهي كفراشة رقيقة أمام إعصار
والدها وابن العم. سأحكي لها عن الكآبة التي انتابتني،
وشعور الإحباط الذي لَوَّن حياتي بالسواد، حتى كرهت
بلدتنا وعزمت ألا أعود. سأخبرها أنها لم تغب عن بالي
طوال الأربعين سنة التي فرَّقتنا، وأن سماع اسمها ما زال
يهزني، ويربكني، حتى اليوم.

سأقول لها: لقد هوى السور الذي قام بيننا أربعين سنة؛
وأصبح بوسعنا أن نعيد مجرى حياتنا إلى درب واحد، يأخذنا
فيما تبقى لنا من عمر، فقط لنكمل حكاياتنا التي انقطعت
منذ أربعين سنة؛ لا يشغلنا عن الكلام شاغل. سأحدثها
همساً، فما زال جرس صوتها الهامس يتردد في أذني. سأقترح
عليها أن نقضي بعض الوقت في قرينتنا، لتأمل ما بقي من
معالم القرية وطرقاتها، ونسترجع ما فات من دهشة ليالينا،
ونجلس بجوار الجدار القديم، ونتذكر. سأحكي لها ما كان

يتناهى إلى سمعي من أخبارها، وما تركته تلك الأخبار من
ندبات في روعي لا تُمحي، لن أصمت عن الكلام حتى
يغلبني أو يغلبها النوم فيميل كلُّ منا على وسادته وينام.

بينما تصطرع الهواجس في داخله، وأمنية اللقاء تحتم
وتعظم خطر له ما قد تكون فعلت بها السنوات؛ فربما لم
تعد شفتاها رقيقتين مستديرتين كخاتم؛ تنزلق من بينهما
الكلمات كعصافير تغادر أعشاشها. حاول مواجهة هذا
الخطر بأن بصره لم يعد يُسعفه لِيُميز بين الشفاه الناعمة
أو الخشنة، ولكنه سيرها بذاكرته كما كانت. وإن حدثته
بحروف متداخلة، مضطربة، فسيسمع صوتها القديم. ثم
إنها هي أيضًا لن تجد ذلك الشاب الممشوق كسيف،
والمرهف كطائر، ولكنها ستجد قلبه، وإحساسه،
وذاكرته، وحبّه. ففي ليالي عشقهما المقمرة لم يظفر منها
إلا بحكايات كثيرة، وقبله لذيذة، وعناق شهوي، وعليها
اليوم أن ترضى منه بمثل ذلك.

سأ تزوجها انتقامًا من أبيها، ومن زوجها الذي حال بيني وبينها أربعين سنة، سأخبر أولادي أنها حبي القديم، الذي دفنته أربعين سنة، وها هو يُبعثُ حيًّا لحظة دُفنِ زوجها؛ لم يتغير ذلك الحب، ولا ذبلت تلك الأحلام، ولا نسيْتُ لذة تلك القبلة، ما زلت أتملظها، وقد آن لها أن تُبعثَ عليّ شفاهنا من جديد.

كم هي ثقيلة هذه الأربعة الأشهر والعشرة الأيام، إنها أطول من سنوات التيه الأربعين؛ تُرى هل يمتد بي العمر حتى أستعيد حبيتي، وأعلن انتصاري عليّ والدها، وزوجها، والفقير، والغربة، والزمن. لقد ذهب من العمر أربعون سنة بلا اتجاه، فيا رب امنحني ما يكفي لأقص عليها كل ما لديّ من الحكايات.

لم يعد يشعر بشيء من حوله، تراءى له حركة الناس ولا يكاد يبصرهم، تلفّت فلم يجد أحدًا، فقد فرغ الناس من دفن المتوفى، وانصرفوا. جثم عليّ صدره صمت

المقبرة، فأطرق على عكازه الغليظ، يُحدّق في الأرض ولا يرى شيئاً؛ انقطع شلال الذكريات حين أحس يدًا تقبض على كتفه، فانتفض ورفع رأسه، حاول النهوض فلم يستطع، ساعده ابنه على القيام؛ وقد رأى على ملامحه الدهشة والذعر، فها هم رفاقه يتساقطون واحدًا تلو الآخر؛ فلا عجب أن يتأثر إلى هذا الحد لموت رجل من أبناء قريته، وفي مثل سنه. قبّل يده، واتجه به نحو بوابة المقبرة، التفت نحو القبر، يتمنى لو سأل الميّت: هل كان يعلم أنه اغتال حبه، وبدّد أحلامه، وسرق عمره؟! خطر له أنه الآن يواجه أسئلةً أصعب؛ زَمَّ شفّتيه وخطا نحو باب المقبرة، يتهدى بين ذراع ابنه والعكاز.

يوليو 2019م

الطريق إلى أسفل

الطريق إلى أسفل

في هذه الساعة المتأخرة من الليل حيث يبدو كلُّ شيءٍ ساكنًا، إلا نفسه التي تضحُّ بالهواجس، والمخاوف؛ لم تُعدْ لديه طاقة لعمل أي شيءٍ.. قام ليغادر مكتبه، فلماذا وقفَ أمام رَفِّ الكتب؟! ولماذا انتزع هذا الكتاب بالذات؟! ولماذا انفرجتْ صفحاته عن هذه الصورة؟! ومتى خبأها هنا؟ ولماذا فعلَ ذلك؟!

ترتعث أصابعه وهي تتلَمَّسُ الوجوه الثلاثة، فترتد على سطح الصورة اللامع، أراد أن يتحسَّسَ ضحكاتهم، وعيونهم. يحب دائمًا أن يكون في المنتصف، فلا شيء في حياته بلغ تمامه، كلُّ شيءٍ يتوقف عند المنتصف، يداه تطوقان كتفي صاحبيه؛ صابر، وحامد؛ لشدة التصاقهم يبدوون كجسدٍ واحدٍ بثلاثة رؤوس، وضحكة واحدة، وإحساس واحد.

ينظر إلى وجوههم، وقد كساها الزمن غلالةً، فلم تعد

باسمةً بريئةً مندهشةً: ففي وجه صابر خرائطٌ من حزنٍ
وَألم، وقد تساقط شعرُهُ الكَثُّ، وحاجباه الجميلان،
وانحسرتُ شفتاه، وبرزت أسنانه، وظهرتُ تفاصيل
جمجمته وعظام وجهه من تحت جلده الرقيق، وعبثتُ
بجسده مشارط الأطباء، وجرعات الكيماوي؛ وجرَّحته
أنياب الذئب الخبيث الذي سَيَّرديه كما أُردي أصدقاءه
في المَصْحَحةِ واحدًا تلو الآخر؛ وكلما حَكى رحيل أحدهم
تساءل بأسى: متى سيأتي دوري؟! ثم ينتحب وينهار.

ينظر إلى وجهه في الصورة، فإذا ضحكته قد يَبَسَتْ،
وملامحه قد تشبَّعت بالحزن، والخيبة، والشعور بعدم
الجدوى، بدا كوجه من أُلقي من برج شاهق، ولم
يعد أمامه إلا الارتطام بمصيره؛ قد يكون رصيفاً صلباً
يهشم عظامه، أو عموداً يخترق جسده؛ لم يكن من بين
الاحتمالات أن يقع على شاحنةٍ محملةٍ بالإسفنج. في
طريقه إلى أسفل يتهياً له أنه في طريقه للقاء صابر.

يُدرِك أن أول الشامتين، هو ثالثهم في الصورة؛ حامد الذي لم يتعاطف مع صابر، ولم يسأل عنه في مصحته، ولا حضر جنازته؛ فقد اتخذ من رفيقي طفولته أعداء، لأسباب تافهة؛ فأصبح يجاهرهما بالعداء، وينافسهما في كل موقف، ويسعى لتشويههما ما وسعه ذلك.

يُمَرِّرُ أصابعه على وجه حامد، يتساءل: كيف تحوّل هذه الوجه الضاحك الوديع إلى أيقونة للكراهية؟!

أراد أن يُعيد الصورة إلى موضعها من الكتاب الذي لا يعرف ما فعل الزمن بهذه الوجوه الباسمة؟! ولكنه يخشى أن تَبْزُغَ عليه مرةً أخرى؛ فتفعل به فعلها الليلة؟ أمسك طرفيها ليمزّقها؛ لعلّه بذلك يتخلّص من الأوجاع التي بثتها في نفسه؛ أسفاً على البراءة والفرحة التي كانت، فبددتها الأيام وتركتهم عرّاةً أمام ضعفهم؛ غلبه الخوف من الندم ذات يوم، فيما لو مزّقها، فقرّر أن يؤجل ذلك للمستقبل، كما تَعَوَّدَ أن يؤجل كل شيء، أعادها إلى

موضعها من الكتاب، وأعادته إلى موضعه من الرَّفِّ،
وخرج ذاهلاً يجرُّ قدميه، وقد تسرَّب الوهنُ إلى روحه،
وتبدَّدَ النوم عن عينيه.

أغسطس 2019م

الكابوس

الكابوس

يؤذيه ضجيجُ الأولاد، يرجو أن ينتهي شجارُهم، لكنَّ الضجيجَ لا يهدأ حتى يملأ صوتُ زوجته فضاءَ الشقةِ الصغيرة، ويملاً رأسَهُ أيضاً، يلتزمُ الصَّمتَ وعيناهُ مصوبتان نحو شاشةِ التلفزيون، حيثُ تقفُ مذيعةٌ منحوتةٌ من الرُّخامِ، تُقدِّمُ إحصاءاتِ ضحايا (كورونا) في بُلدانِ العالمِ.

يتساءل: لماذا أُثخِنتُ إيطاليا بكورونا، مع بُعدها عن

مصدرِ الفايروس؟!

- ألا تسمعُ صياحَ الأولاد؟

- سمعتُهم، وسمعتُ صياحَكَ أيضاً.

- لو كان عندك إحساس لأدبَّتْهم، وارتحتَ من صوتي

الذي لا يُعجِبُكَ.

انتظرتُ ردَّهُ لتُفرغَ ما تبقى في صدرِها من الصَّجَرِ، ولكنهُ لزمَ الصَّمتَ، زفرتُ بعنفٍ وهي تُغادرُ الصَّلاةَ،

تَبَعَهَا بِنظَرَةٍ عَجَلَى، لَمْ تَكُنْ مَقْدُودَةً مِنَ الرُّخَامِ. أَعَادَ
النَّظَرَ إِلَى الشَّاشَةِ، هَلْ حَقًّا دَفَنَ الصِّينِيُّونَ عَشْرِينَ مِليُونًا
دُونَ إِعْلَانٍ؟ الفايروس في الصِّينِ فكيفَ تَقْفِزُ أمريكا
لِتَتَصَدَّرَ عِدَدَ المصابين والوفيات؟

ماذا لو تسَلَّلَ الفايروس إلى شِقْتِهِ مع شيءٍ من الأَغْرَاضِ
التي يُحْضِرُهَا في سَاعَاتِ رَفَعِ الحَظْرِ؟ وما يُدْرِيه؛ فقد
يكونُ الفايروس كما يُقال: غازٌ مُنتَشِرٌ في طبقاتِ الجِوِّ، أو
هو صَنِيعَةُ الدُولِ العُظْمَى، لِلتَّحَكُّمِ بِمَصِيرِ العَالَمِ!

قالَ لَهُ أَحَدُهُم: "لا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِأسبابِ نشوءِ الفايروس
ولا بِمصدرِهِ، ما يَنْبَغِي عَلَيْكَ هُوَ التَّفْكِيرُ كيفَ تَحْمِي
نَفْسَكَ وَأَسْرَتَكَ". هذا مَنْطِقٌ عَمَلِيٌّ، وَلَكِنْ كيفَ أَحْمِي
نَفْسِي مِنْ شيءٍ لا أَعْرِفُهُ؟! هل يَغْنِي السُّكُونُ في البَيْتِ؟!
وماذا لو نَفَدَتِ الأرزاقُ مِنَ البَقَالَاتِ كيفَ سَأَتَصَرَّفُ؟!

تَخِيلَ نَفْسَهُ في طابورٍ طَوِيلٍ يُزاحِمُ وَيقاتلُ مِنْ أَجْلِ
الحصولِ على كيلورز، أو كيسٍ دَقِيقٍ، أو صَفِيحَةِ زَيْتٍ.

- بابا: تعال العب معنا؟

- بعد الأخبار يا حبيبي.

انصرف الصغيرُ بهدوءٍ. المذيعَةُ تُقدِّمُ تقريرًا عن تبادلِ الاتهاماتِ بينَ أمريكا والصين حولَ فايروس كورونا. عادَ الصغيرانِ إلى الشجارِ، صوتُهُما يعلو، تتدخلُ أمُّهُما، يتبادلانِ الاتهاماتِ أيضًا. انتهتِ المشكلةُ دونَ صياحٍ هذه المرَّة.

منذُ يومين شاهدَ مقطعَ فيديو؛ يُلخِّصُ صاحِبُه العلاجَ في خلطةٍ من: (الزنجبيل، والليمون، والثوم)، ختمَ المتحدثُ كلامَهُ بثقةٍ كبيرة: "من يُطبِّقُ هذه الوصفةَ فلا خوفَ عليه من الكورونا أبدًا. وجزى اللهُ من نشرَ المقطعَ خيرًا". خيبةُ أملٍ لا تتعدُّ كثيرًا عن فكرةِ الحَقنِ بالمطهراتِ، التي اقترحها الرئيسُ الأمريكي، سيُجرَّبُها على أية حالٍ. تُرى لماذا صَمَتَ الرُّقاةُ، فلم يظهرُ فيهم من يتصدى للفايروس، وهم الذين يزعمونَ ترويضَ الجنِّ؟!!

حَبَسَهُ الْحَجْرُ الصَّحِيَّ عَنِ لِيَالِي الْأُنْسِ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ،
وَلَكِنَّهُمْ يَقْضُونَ مَعْظَمَ الْوَقْتِ يَتَبَادَلُونَ الْإِشَاعَاتِ،
وَالنُّكَاتِ، وَالصُّورِ، وَالتَّعْلِيقَاتِ عَبْرَ مَجْمُوعَةِ الْوَاتْسَابِ.
وَقَفْتُ أَمَامَهُ وَقَدْ لَبِسَتْ ثِيَابَ الْخُرُوجِ، قَالَتْ: أَخَوَاتِي
عِنْدَ أَهْلِي، سَأَسْهَرُ مَعَهُمْ.

- وَالْحَظْرُ وَمَنْعُ التَّجَوُّلِ؟!

- الْبَيْتُ قَرِيبٌ، سَنَذْهَبُ مَشِيًّا.

- وَمَخَاطِرُ الْعَدْوَى، رُبَّمَا تَعُودِينَ بِالْفَايِرُوسِ؟

- أَهْلِي لَيْسَ فِيهِمْ مُصَابٌ؟! عَرَفْتُ أَنَّهَا تُلْمِحُ إِلَيَّ وَالِدِي
الَّذِي يَرْقُدُ فِي الْعِنَايَةِ الْمُرَكَّزَةِ، وَأُمِّي الْمَعزُولَةَ مِنْذُ أُسْبُوعَيْنِ.
- رُبَّمَا تَعْتَرِضُكَ الشَّرْطَةُ، وَتَسْجَلُ عَلَيْكَ مَخَالَفَةَ وَغَرَامَةَ.

- سَأَقُولُ لَهُمْ: زَوْجِي طَلَقَنِي، وَطَرَدَنِي مِنَ الْبَيْتِ،
وَأَعْطَيْهِمْ عِنْوَانَكَ. وَضَحَكْتُ وَهِيَ تَأْخُذُ بِيَدِ أَصْغَرِ
أَبْنَائِهَا، وَيَتْبَعُهَا الْآخَرَانِ، يُفَكِّرُ فِيمَا قَالَتْ بَيْنَمَا قَرَقَعَةٌ
أَحْدَيْتَهُمْ عَلَيَّ سُلَّمِ الْعِمَارَةِ تَبْتَعُدُ شَيْئًا فَشِيئًا.

نهَض، سار خطواتٍ، أطلَّ من النَّافذة يُراقِبُ الرَّصيفَ،
صَجِرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، رأى سيارَةَ الشرطَةِ تقفُ في نهايةِ
الشَّارِعِ، ظهرتْ مع صغارِها من زاويةِ العمارةِ، لَمَّا
أصبحتْ تحتَ النافذةِ تمامًا ناداها، رفعتْ رأسَها، أشارَ لها
نحوِ نهايةِ الشارعِ، لم تكثرْ واستمرَّتْ في مِشيتها المتتدِّةِ
الواثقةِ، حتى غابتْ عنه في مُنحنى يُوَدِّي إلى بيتِ أهلِها.

عاد فاسترخى على الكنبه، يُتابعُ المذيعَةَ الرَّخاميةَ،
وما زالتْ تستعرضُ تعليقاتِ المحللينَ حولَ الوباءِ الذي
ينتشرُ على نحوٍ عَجَزَتْ الدُّولُ عن مواجَهتهِ.

تضمَّنَ التقريرُ تصريحًا لـ (بيل قيتس)؛ ترى ما علاقةُ
امبراطورِ التكنولوجيا بكوفيد19، هل يؤكدُ ظهورُهُ علاقةَ
الـ(G5) بالفايروس؟!!

يَتَنقَّلُ بينَ القنواتِ، فتنوعُ التقاريرُ حولَ الفايروسِ،
ولكنَّها تتشابهُ في الأرقامِ، والمصادرِ. يُفكِّرُ في والدتهِ
المعزولةِ، لم يَرها منذُ أسبوعين، ووالدهِ الراقِدِ في العنايةِ

المُرَكَّزَة؛ والأمل في سلامته يتضاءل ساعةً بعد ساعة.
على الشاشة تقريرٌ عن آثار تعطيل الطيران بين الدول،
وإيقاف القطارات، وفراغ الشوارع من السيارات، وتوقف
المصانع؛ والسكون الذي يعمُّ العالم!

يتحدّث الخبير عن تعافي الطبيعة، ونقاء الجو، وتضاؤل
ثقب الأوزون. يتضمن التقرير صوراً لأهم الشوارع في
مدن العالم، وقد أصبحت خالية، لا حركة فيها، الكلُّ
مختبئٌ رغماً عنه، تبدو الدنيا موحشة؛ دور السينما،
المسارح، الأسواق، المساجد، الكنائس، المتاحف، كلُّ
الأمكنة التي بناها الإنسان أصبح تواجهه فيها يُشكّل
خطراً عليه.

رسالةٌ من المستشفى: "مريضكم ذو الرقم... توفي
وسيتولّى المستشفى تجهيزه ودفنه عند الساعة التاسعة
من صباح الغد بحضور شخصين من أسرته".

شعر بحزن عميق، لم يستطع التعبير عنه. هل يُخبر زوجته؟

لا داعي، فكلُّ ما ستفعله أنَّها ستُخبرُ أهلها ويتولون إشاعة الخبر، وتُصبحُ عائلته مَوْصومةً بموتِ أحدِ أفرادها بكورونا. الأفضلُ أن يبقى الأمرُ قاصراً على أخوته وأخواته، حتى أمّه لا داعي أن تعرفَ قبلَ خروجِها من الحجر، وسيذهبُ في الموعدِ إلى المستشفى، وينتهي الأمر.

لم يعد من المقبولِ الكلامُ حولَ مؤامرةٍ إعلامية، فهناك فايروسٌ قاتلٌ يُنهي حياة الناس. وقد أنهى حياة والده.

قرعةُ المفتاحِ في الباب، لا بُدَّ أنَّها عرَفت، وإلا لما رجعتُ بهذه السُرعة، دفعت الصغارَ إلى غرفتهم، ورجعتُ بهدوءٍ غيرِ مُعتادٍ، جلستُ إلى جواره، نظرتُ إليها وأشارَ إليَّ أن الخبرَ قد وصله. أمالتُ رأسه على صدرها، وأخذَ يتَّحِبُّ كطفلٍ صغيرٍ.

حينَ فتحتُ البابَ لتوقظه استعداداً للفطورِ كان يُمرِّغُ وجهه في الوسادة ويكي بحرقه، أيقظته ففزَّ مروّعاً، يُحدِّقُ في زوايا الغرفة، ينظرُ إليها بعينين دامتين، ووجهٍ مشدوهٍ،

تجمّدتُ في مكانِها، تنظرُ إليه وهو يلهثُ، قامَ إلى النافذةِ،
فتَحَها باضطرابٍ، نَظَرَ إلى الشارعِ المُكْتَظِّ بالسياراتِ،
والباعةُ يعرضونَ المأكولاتِ، والناسُ في ازدحامٍ شديدٍ
يتبضعونَ احتياجاتهم ليُدْرِكوا فطورَ أولِ أيامِ رمضانَ في
بيوتهم.

يونيو 2020م

الحبُّ من أول نعمة

الحبُّ من أول نغمة

سأله المذيع عن سرِّ تعلقه بالهارمونيكا، حتى أصبحت معزوفاته أيقونات للمسارح والإذاعات والقنوات، فأسند ظهره إلى ظهر المقعد، وشَخَصَتْ عيناه ينظر نحو المدى، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال: لقد بدأت القصة بسرقة..

- قاطعه المذيع: سرقة؟!

- نعم سرقة..

كنتُ في الصف الرابع، حينَ أحضر أحد التلاميذ، آلة سحريةً صغيرة، يمررها بين شفثيه وينفخ فيها فتصدر أصواتًا متناغمة، أدهشني صوتها، والتلاميذ يتناوبونها؛ يمررونها على شفاههم، وكلُّ واحدٍ ينتزعها من الآخر، لم أستطع الدخول في أتون هذا الصراع، ولكن قلبي تعلَّق بها، أحاول أن أصرف نظري عنها، وأتظاهر بعدم الاكتراث، قررتُ منذ اللحظة الأولى أن هذه الآلة الخرافية تخصني، وأنه يجب أن أحصل عليها بأي طريقة، وما من طريقة غير

سرقتها؛ لا أحد يستحقها ويقدرُ دهشتها غيري؛ إنهم يعشون بها أما أنا فأعشقها، لقد أحببتها من النعمة الأولى، ينبض قلبي بعنف، أنطوي على نفسي لأخبي ما يدور في خاطري، أقاوم رغبتني في تجربتها، فالتجربة العابرة لا تكفي.

طالما حَدَّثْتُ سرقات في الصف، فَيَفْتَشُ الجميع بإشراف أحد المعلمين، أو بتطوع من التلاميذ أنفسهم، كنتُ أخضع للتفتيش بطيب خاطر، فلم تمتد يدي من قبل إلى شيء من المسروقات. يطال التفتيش الحقائق، وأدراج الطااولات، وأكمام الثياب، وكثيراً ما تنتهي بمعرفة السارق، فينال عقوبةً تتفاوت حسب غلظة المعلم الذي شهد القضية. مرَّتُ حصة القراءة ثقيلة مملّة، وحين بدأت حصة الرياضة أسرع التلاميذ نحو الملعب، أما أنا فقد تلكأْتُ قليلاً؛ وحين تأكَّدْتُ أنني وحدي في الصف، استخرجتها من درج صاحبها وألقيتها من النافذة، وقد قدَّرت على وجه التقريب أين ستقع من الأعشاب

المجاورة لجدار المدرسة، ولحقت بزملائي، لم أشعر بمتعة حصة الرياضة فقد كنت متوجسًا، مشغول البال.

لم أرَ فيما فعلتُ سرقةً بل تصحيحًا لملكية خاطئة. في الحصة الرابعة بينما المعلم يصحح دفاترنا سمعتُ همهمات في آخر الصف، يرتفع الصوت، أتجاهل الأمر وأنشغلُ بتصفحِ كتابي وأذني تمتد للوراء، رفع المعلم رأسه نحو الصوت مستنكرًا، وقبل أن يجرهم أخبره أحد التلاميذ باختفاء (الزَّمَّارة)، وانتهى الأمر بتفتيشنا جميعًا، اقترح أحد التلاميذ تفتيش طلاب الصف الخامس المجاور لصفنا، لم يرَ المعلم ضرورةً لذلك، ولكننا فوجئنا ونحن نغادر المدرسة بعدد من أقرباء صاحب (الزَّمَّارة) يتطوعون لمساعدته في تفتيشنا مرةً أخرى.

في المساء تخيلتها بين الحشائش، حزنتُ لأنها وحيدة في العراء والظلام، ربما تكون باردة وخائفة، ساورتني مخاوف أن يعثر عليها أحد. في اليوم التالي ألقىتُ نظرة

من النافذة لأطمئن أنها ما زالت في مكانها، لم أستطع رؤيتها، في نهاية اليوم الدراسي تجولت بحذر بين الحشائش والشجيرات بجوار الصف. وفي المساء كنت أظير كفراشة على أنغام الآلة السحرية، كان كل شيء حولي يرقص على أنغامها، وريثما يغلبني النوم كنت أتلمسها في الظلام، أمررها على شفتي، وأتخيل صوتها، ثم أدسها تحت المخدة وأنا، وحين أستيقظ أتذكرها فيغمرنى الفرح. انعقدت بيننا صداقة؛ فحين أمررها بين شفتي أنفصل عمّا حولي، وأحاورها فتستجيب لخواطري وتعبّر عني.

ختم كلامه وهو يخرج من جيبه (هارمونيكا) بلاستيكية قديمة مُثَلِّمة، يرفعها باعتزاز أمام المذيع.

أكتوبر 2020م

امراة مختلفة

امرأة مختلفة

وقفتُ أمام المرأة تبحثُ عما قد يلفتُ نظر الخاطب،
تأمّلتُ وجهها الشاحب وهي تمسّد بقايا شعرها، لمستُ
جيدّها المتغصّن، وزمّمت شفتيها، ثم مدّت صدرها،
وحركت شفتيها لترى كيف تبدو لو أنها تستطيع الكلام!
استدارت لترى بقايا جسدٍ كان يوماً فتنةً للناظرين.

في صباها كانت تنظر إلى المرأة فترى نضارة وجهها،
واكتناز شفتيها، واستقامة جيدها، ونفور صدرها، وروعة
قوامها. ولكن الرجال لا يتقبلون عجز لسانها، فيملؤون
عيونهم بفتنتها ثم يذهبون ولا يعودون. فتقسم ألا يراها
خاطبٌ جديد، ثم يغلبها الأمل، فتدعن لإلحاح أبويها،
وتستقبل واحداً آخر، على أن يكون آخر خاطب تستقبله؛
حتى تباعدت الأيام بين خاطبٍ وخاطب.

منذ رحل والداها امتنعت عن مقابلة الخطّاب؛
فما الذي جعلها تنكث عهدها، وتضرب موعداً للقاء

خاطب جديد؟! لقد جاء مع من جاء أيام الصبا، وذهب
كما ذهبوا؛ فما الذي عاد به بعد هذه السنين؟! الفضولُ
يستحوذُ عليها؛ ستقابله فلم يُعدْ لديها ما تبخل به على
خاطبٍ يراها ثم يمضي ولا يعود. سَيَجِدُ الفرقَ فادِحًا
بين المرأة التي يراها اليوم والفتاة التي رآها قديمًا، فقد
تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا عُقْدَةَ لسانِها. لا بُدَّ أنه قد تغير هو أيضًا،
فأمسى مهْدَمَ الجسد، أو تَكَوَّرَ بطنه وتهدَّل. تُرَى أما زال
يتذكر جمالها بعد كل هذه السنين؟ تشكُّ في ذلك فذاكرة
الرجال ليست أمينة.

صبغتُ بالحناء راحتيها، وشففتُ ما تبقى من شعرها،
وتحرَّكتُ عواطفُ سكنتُ منذ سنين فمستُّ وجهها بزينةً
خفيفةً، ولبستُ فستانًا يناسبُ امرأةً تصغرُها بعشر سنين.
عاودها الفتور وهي تنظر إلى نفسها في المرأة. خطر لها أن
تراجع فلا تقابله، فيكون ذلك ردًّا مناسبًا على انصرافه عنها
بعد الخطبة الأولى؛ استجمعتُ ثقتها وقررتُ أن تشاهدَ

رجلاً خطبها في صباها، وملاً عينه بفتنتها، وعاد إليها وقد مالت شمسُ حياتها نحو الأفول؛ ليشاهد بقايا امرأة، إنه لا يستحقُّ أكثرَ من ذلك.

ثَقَلَتْ عليها الخطواتُ التي تفصلها عن المجلس، تباطأت وهي تقترب من الباب، تحملُ القهوة، تنفصّدُ خطوط جبينها بعرقٍ خفيف، استجمعت شجاعتهَا ودخلت، نهض أخوها فحملَ عنها القهوة، وجلست في أقرب مقعدٍ نحو الباب، وهي تُمرّر راحة يدها على جبينها، نظرت إليه حين انشغل بتناول فنجان القهوة؛ لم يتغير كثيراً؛ ابضتُ أجزاءً من لحيته الخفيفة فازداد جاذبيةً ومهابةً. ستقبل به كما قبلتُ به من قبل، قال لها: "أرجو أن تكوني بخير"، فلم تزد على أن أشارت برأسها بالإيجاب، ثم مرّرت أصابعها على جبينها، حين يتجه نحو أخيها تسارقتُ النظرات، وتطرق حينَ تشعرُ أنّ نظره يتجه إليها.



يتأمل بيتهم، يحاول تذكُّر ما كان عليه في زيارته السابقة، لقد تغيَّر كلُّ شيء؛ وغاب الرجلُ الوقورُ الذي التقاه يومها، حلَّ محلُّه شابٌّ؛ كان طفلاً يتبع والده في المرة السابقة، لقد أصبحَ رجلاً ممتلئاً بالحياة، يبعثُ حديثه على التفاؤل.

غمره السرورُ لمجرد أن وافقت على مقابَلته، سيكون القرارُ لها هذه المرة؛ أما هو فقد جاء ليتزوجها لا ليملأ عينيه بفتنتها كما فعل من قبل. يعتقد أن الله جازاه جزاءً وفاقاً، حين تزوج امرأةً لسانها من مسد. يعتقد أنه استعاد جزءاً من إنسانيته بفراقها، ولكنه يأسف على سنوات عمره التي تبددت برفقتها. لقد آن له أن ينعم بامرأة مختلفة عن كلِّ النساء، ويكفّر عما اقترفه في حقها يوم دخلَ هذا البيت متذرعاً بخطبتها ليرى جمالها الذي كان حديث الناس.

حين دخلتُ عدلَ جلسته، تناول أخوها القهوة فاستغل انشغالها وقاسها بنظراته، يبحث فيها عن الفاتنة القديمة،

فوجد امرأة شاحبة، يلتمعُ العرقُ على خطوط جبينها
الأصفر، وما تزال عليها مسحةٌ من جمال، والحياءُ بريقُ
دموعٍ في عينيها. يصرف نظره عنها وهو يتحدث إلى
أخيها ليمنحها فرصةَ النظرِ إليه، ابتسمت وهي تستمع
لأحاديث أخيها الضاحكة، فشفتُ ابتسامتها عن بقايا
جمالها القديم.

شدّه جلالُ صمتها الذي رفضه فيما مضى، فيتذكر
زوجته التي سمّمت بكلماتها حياته؛ ترنُّ في أذنيه شكواها
الدائمة، وثرثرتها التي لا تنتهي. وقد جعلت حياتها
الخاصة مادةً لتسلية جلساتها، حتى ليشعر أن حياتها
عارية، وأن بيتها من زجاج.

صرّح برغبته في الارتباط بها دون تأخير، احمر وجهها،
وفلت منها ابتسامة رضا، والتمعت الدموع في عينيها،
ومسحتُ العرقَ عن جبينها. يتساءل: أبلغُ بها السماحة
أن تغفر له جيئته الأولى؟ فيصبح زوجًا لسيدة مختلفة؛

تُصغي حين يتحدّث، وتصمتُ حين يصمت، وترقصُ
حين تفرح، وتُشيعُ بوجهها أو تبكي حين تغضب. كم
يحتاج لهذه السيدة الجميلة، المتسامحة، العاجزة عن
الكلام، ليعيش ما تبقى من عمره بسلام.

أبريل 2021م

• أعمال سردية للمؤلف :

- 1- قطف الأشواك (قصص) 2001م، (جائزة نادي جازان الأدبي).
- 2- على رصيف الحياة (قصص) 2003م، (جائزة أبها للثقافة).
- 3- التابوت (قصص) 2008م.
- 4- أوшал حزينه (قصص) 2008م.
- 5- حديث الرخام (قصص) 2008م.
- 6- جبل حالية (رواية) جائزة الشارقة للإبداع العربي 2009م.
- 7- عتق (رواية)، جائزة حائل للرواية 2013م.
- 8- الأعمال القصصية، 2014م.
- 9- فتاة الفراشات (قصص) 2014م.
- 10- أوزار (قصص) 2017م.
- 11- نصف نافذة، (قصص قصيرة جدًا)، 2020م.
- 12- سَوْرَة حب، (قصص)، 2023م.
- 13- مغانم صغيرة (رواية). مُعدَّة للطباعة.

